

لأنها تريد أن تجعل من العلم عبادة أو حقيقة قدسية أو مبدأً إلهياً! ولا شك أن العالم حينما يضيف على موضوع دراسته طابعاً متعالياً وكأنما هو شيء مقدس يحق له أن يكرس نفسه لخدمته ، أو حينما يجعل من العلم موضوع عبادته وكأنما هو الغاية القصوى لوجوده نفسه ، فإنه في الحقيقة إنما يجعل من « العلم » بديلاً « لله »! وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من العلماء يحاولون اليوم أن يقفوا من الجماهير موقف « السحرة » ، فتراهم يرددون على مسمع من البسطاء كلمات اصطلاحية صعبة وعبارات سرية مستغلفة ، ورموزاً علمية مبهمه ، قاصدين من وراء ذلك إلى إشباع الحاجة الملحة إلى المعجزات والأسرار والخفيايا عند غير أهل العلم من سواد الناس! وهكذا نراهم يسطون كل ذلك وكأن ما قد يخفى على الجمهور من قضايا غامضة أو حقائق مبهمه ، إنما هو عندهم آيات بينات لا يخفاء فيها ولا غموض! ولكنهم هم أنفسهم إنما يلقون — فيما وراء ذلك النور الواهي الذي يزعمونه وفقاً عليهم — ظلمات كثيرة ، ومجهولات لا حصر لها . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول إنهم يخفون من حيث لا يعلمون ، إذ يوهمون السواد الأعظم من الناس بأن شيئاً لم يعد يخفى على العلماء ، حتى ولو كان سراً مستغلفاً عند غير أهل العلم ، فيجعلون من « العلم » عبادة جديدة ، وكأنما هو كاشف الأسرار ، وصانع المعجزات (١)!

٤٧ —

إننا لنظن في بعض الأحيان أن ملكوت الإنسان ملكوت أرضى مغلق على ذاته ، وأن الكلمة النهائية للوجود الإنساني إنما تتوقف على الإنسان نفسه ، ولكن التجربة سرعان ما تظهرنا على أن ثمة شيئاً يمتد فيما وراء التجربة ، وأن هناك بعض شفرات أو رموز تنطق باسم تلك الحقيقة المتعالية المستغلفة! حقا إن الله ليس موضوعاً من موضوعات التجربة ، وبالتالي فإننا لن نستطيع أن نبرهن على وجوده وكأنما هو شيء كائن في العالم ، ولكن من المؤكد أن في الكون نفسه من « الشفرات » ما قد يسمح لنا بأن نستدل على وجوده ، أو على الأصح ما قد يحملنا على أن نشهد بوجوده (٢) وحسبنا أن ننظر إلى ما في العالم من نقص ، وتناه ، ونسيية ، لكي نتحقق من أن هذا العالم هو أعجز من أن يفسر نفسه بنفسه! وقد يقع في ظننا أن الإنسان أقدر من الكون على الاكتفاء بنفسه والقيام

كله إلى أعلى عليين^(١) وهكذا ترددت في فلسفة ماركس التاريخية أصداء الوعى العبرى القديم ، فظهرت لديه أحلام المدينة الفاضلة وأوهام الفردوس الأرضى المنشود ، وكان فلسفة التاريخ عنده قد أرادت أن تستحيل في نهاية الأمر إلى صورة وضعية من صور اللاهوت theologie ، أو كأن رجاء الحياة الأبدية قد شاء أن يتحقق في صميم العالم الحاضر ! حقا إن « التعالى » هنا لا يخرج عن كونه ضريا من التحرر الشامل الذى يصبح الإنسان معه مالكا لزمام نفسه تماما ، ولكنه على كل حال « تعال » مثالى تكمن وراءه تلك الحاجة البشرية الملحة إلى تجاوز الطبيعة والعلو على الإنسان .

٥٠ — أما نيتشة —

« بسكال الوثنية » the Pascal of Paganism — فقد أراد أن يعلنها حربا ضروريا على الله حتى لا تقوم قائمة من بعد لكل تلك القيم الميتافيزيقية التى اعتاد الناس أن يعدلوا الله ضامنا لها ! وإذا كان من شأن فكرة الله — فيما يرى نيتشة — أن تسقط ظلال الخطيئة على براءة الأرض ، فإنه لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهروا بمعاولهم على تلك الفكرة ! وحينما يهتف نيتشة قائلا : « طوف لأتقياء القلب ، لأنهم لا يعاينون الله ! » ، فإنه يعنى بذلك أن المعرفة الحققة إنما هى تلك المعرفة القرحة المنتشية التى تبعث من صميم الإحساس بالأرض^(٢) ! حقا إن الناس ليستمسكون في العادة بفكرة الله ، لأنها عزيزة عليهم ، ثمينة في أعينهم ، مادام الله هو الذى يغطى نقائصنا ويسد احتياجاتنا ويمدنا بالتفسيرات حيث تعوزنا الأدلة ، ولكن من واجب الفيلسوف أن يثور على هذه الفكرة السهلة التى تكشف عن تكاسلنا وضعفنا وخوفنا من الحياة نفسها : ومن هنا فقد صاح نيتشة بأعلى صوته قائلا « لا » لذلك الإله الوديع الذى طالما تغنت به النزعات الصوفية العاطفية في القرن التاسع عشر ! أما أولئك الذين التمسوا في الله مخرجا يقودهم إلى ملكوت السموات ، فإن نيتشة يرد عليهم بقوله : « لقد صرنا بشرا ، ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض ! » وهوى نيتشة بمعموله على أصنام الدين والفلسفة والأخلاق فلا يدع ثرا لكل تلك السلطات الخارجية التى أرادت أن تستعبد الإنسان وتخفق إرادة القوة لكامنة فيه ... ولكن إرادة القوة هى حسن الأرض ، فليس علينا سوى أن نؤمن بالحياة